أعلام معاصرون :

محمـــــد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١ م

للشيخ محمد رجب البيومى

يرى التجول فى مديرية جرجا قرية « باصونة » الصغيرة ، حل بها لفيف من العرب الخلص الذين ينتمون إلى قبيلة جهينة وهى إحدى القبائل العريقة التى نزحت من الجزيرة العربية إلى مصر فى حقب مختلفة ومازالت تنتقل فى ربوع الوادى حتى استقر بها المقام فى أعلى الصعيد

ومنذ ثمانين عاما كان بهذه البلدة الهادئة بيت مرموق المكانة

حساباً مهما بلغت شناعة ما يصنعون ...

وكنت أكتم ضحكى تلقاءه ، وأخشى أن يغلبنى ، فأتأهب لألحق بالمحصل وأوصد من خلفى الباب ؛ ثم أشغل نفسى بالتفكير فى أمره ، فأقول لو أن لهذا « الدوتشى » ولأمثاله من المتحمسين الأشداء مثل هذا الثبات فى الجد من الأمور ، أو مثل هذا الرفض والإباء إذا دعاهم رؤساؤهم إلى غير مايحبون ، لأخرجت أمتنا من الأبطال ما لم تخرج أمة مثله فى غابر الزمن وفى حاضره ، ولكن أكثر تحمسنا يأتى حين لا نخشى قوة ، وكثيراً ما يكون فى التافه من الأمور ..

وظل هذا « الدوتشى » على ثباته وإصراره ، وظل القطار فى موضعه والناس فى العربات الأخرى ينظرون فى ساعاتهم ويطلون من النوافذ ويظهرون أشد علامات التبرم والسخط ، ويطل بعضهم من الباب ينظرون إلى هذا الذى لا يبالى بشىء .

وجاء قطار آخر وتشاور المحصلون فيما بينهم ؛ ثم انطلق بعد حين ذلك القطار الذى يحملنا ويحمل الدوتشى حتى وقف على إحدى المحطات ، فنزل مزهواً بالنصر ومشى مرفوع الهامة موفور الكرامة إلى حيث يتضاءل ويتصاغر بين يدى رئيسه .

الخفيف

٢٨ . ٤٣

يقصده الوافدون للتبرك بصاحبه الصوفى الزاهد « عبد المطلب واصل » فهو شيخ وقور تنتظم فى بيته حلقات الذكر وتهب لديه النفحات الروحية الصافية ، ثم هو عالم متفقه فى دينه يعظ الناس كل مساء بما وعاه من الكتاب والسنة ، فيهز أوتار القلوب . ويأخذ بمجامع العقول ، هذا إلى عربيته الخالصة ونسبه الصريح

ولد شاعرنا الكبير سنة ١٨٧٠ فى هذا البيت الطيب ، فنزبى تربية دينية قويمة . وطبع منذ نعومة أظفاره على الخلال العربية الحميدة ، وطبيعى أن يسلمه والده إلى معلم القرية فيحفظ القرآن الكريم ، ويلم بقواعد القراءة والكتابة ، حتى إذا فرغ من ذلك أمكنه من الفقه الإسلامى والحديث النبوى فارتشف ما قدر عليه من معينهما الرائق ، ثم أنس من نفسه المعرفة فجلس يعظ الناس مكان والده ، وهو يعد فى مبدأ العقد الثانى من حياته الزاهرة ، فكان من يسمعه فى هذه السن الباكرة يؤخذ بلباقته الفائقة ، ويدعو له بالنجاح والتوفيق

وكان العارف بالله الشيخ اسماعيل أبو ضيف شيخ الطريقة يزور حزيده « عبد المطلب واصل » فى « باصونة » من حين إلى آخر ، فشاهد نجله الصغير يعظ الجمع الحافل كعادته ، وهو لايزال طرى الأملود غض الإهاب ، فتوسم فيه النجابة والذكاء ، وزاد به إعجابه فعرض على والده أن يصحبه إلى القاهرة حيث يرتشف العلم الغزير من منهله الرائق بالأزهر الشريف ، وكانت فكرة حميدة تلقاها الوالد بالترحاب والقبول ، ولم يمض زمن وجيز حتى كان الواعظ الصغير طالبا بالأزهر يقضى فيه بياض نهاره ، فإذا جنه الليل توجه إلى منزل حاضنه الشيخ اسماعيل فلازمه حتى الصباح

وإذا كان الفتى قد شهد مجالس التقوى فى صورة مصغرة عند والده بالصعيد فإنه فى منزل حاضنه الأكبر الشيخ أبى ضيف يرى الصورة الكبيرة لهذه المجامع العامرة ، ويستمع إلى القصائد الصوفية التى تنشد فى الحلقات كل ليلة ، فيحس لها رنينا مشجيا يدعوه إلى تفهمها واستظهارها حتى كونت لديه ملكة حساسة تطرب للتوقيع الجميل ، وتتذوق المعنى الرائع ، ومهما يكن من

شيء فقد كانت هذه المقطوعات الصوفية أول حافز دفعه إلى الانكباب على الدواوين الشعرية في ميعة صباه يستوضح غامضها ويتفهم معانيها حتى خلقت منه فيما بعد شاعراً فحلا جزل العبارة فخم الأسلوب !

ولقد كان الطالب الأزهري مبرزا بين لداته ، مشمولا بعطف أساتذته ومشايخه . إذ أن المبادىء الفقهية التي حصلها عند والده قد مهدت له أسباب التفوق والنبوغ ، ودفعته إلى التحصيل في لذة وشوق ، فأخذ يستوعب كل ما يلقى عليه أتم استيعاب حتى نضج عقله في مدى سبع سنوات قضاها في الأزهر المعمور ، ثم هو لا يكتفي بما يأخذه من دروس قيمة في اللغة والدين بل رتب لنفسه جزءا خاصاً من رائع الشعر العربي يحفظه يوماً بيوم ، حتى خرج من الأزهر إلى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٢ م وعنده من غرر القوافي ثروة ثمينة ساعدته على النظم في مختلف الأغاني الشعرية ، وجعلته يثق بنفسه ويعتد بملكته أكمل اعتداد

ولقد هيأت له الظروف في سنته الأولى بدار العلوم فرصة طيبة لمع فيها نجمه ، فقد وقف يرثي فقيد المعارف علي باشا مبارك في حفل عام أقيم لتأبينه فأتى بالرائع المعجب من الأبيات الرصينة ، وخرج أساتذته وزملاؤه الذين سمعوه ينثرون عليه أكاليل الثناء ، ويضربون به المثل في قوة الشاعرية وصفاء القريحة ، مما حفزه بقوة إلى الإطلاع الدائب ، والإنتاج الثمين

وكان المرحوم الأستاذ الشيخ سليمان العبد إذ ذاك مدرساً في دار العلوم وله ميل شديد إلى النظم . فكان لا ينشىء قطعة إلا عرضها على تلميذه مستنيراً برأيه أمام زملائه ، وكثيراً ماينزل على إرادته فيحذف ويثبت كما يملي عليه تلميذه الناشىء ، فإذا ما نشر قصيدته — وكان دائماً يكتب في الوقائع المصرية — قرأها على تلامذته معترفا بما لعبد المطلب من أثر جميل

قضى الشاعر أربع سنوات في دار العلوم وتخرج منها في سنة ١٨٩٦ متوجا بالنجاح ، فنجا من قيود الدراسة التعليمية ، وهي كما نعلم — محصورة في علوم خاصة ومناهج محددة ، قد لا يكون للشاعر في بعضها رغبة ملحة أو حاجة ماسة ، أما الآن فهو حر فيما يقرأ ويدع ، وهنا نجد عبد المطلب قد عكف على الكتب الأدبية القديمة يستخلص لبابها ويستظهر أشعارها ، ويروي أخبارها ، ومن حظه أن عين مدرساً بمدرسة سوهاج الابتدائية وبها يومئذ صفوة مختارة من عشاق الأدب ورواد المعرفة ، أذكر منهم المرحومين الأستاذ عبد الرحمن قراعه ، وعبد الله بك الطوير وعلي بك الكيلاني ، فنشأت بينهم وبين الشاعر صداقة وليدة تعهدها الأدب بمائه العذب حتى غدت دوحة مورقة وارفة فكانوا يعقدون مجالس السمر الأدبي حافلة بالنادرة الطريفة واللمحة البارعة ، فإذا جاء دور الشعر فحمد راويته الفذ وصناجته الحكيم ، وكثيراً ما يقترحون عليه أن ينظم في معنى معين فيتحفهم بما يريدون مستعينا ببديهته الواثبة وقريحته المتوقدة ، وكان الشيخ قراءة أحبهم إلى قلب شاعرنا المجيد ، وإنك لتجد في ديوانه قصائد عديدة ممتازة قالها في صديقه الوفي تنطق بالود الخالص ، وتنبىء عن الحب الأكيد ! .

ولقد نظم الشاعر في هذا العهد طائفة محمودة من الشعر السهل الواضح تتناسب مع تلامذته في المدرسة الابتدائية ، فجذبهم إلى الشعر يتذوقونه ويحفظونه بعد أن كانوا لا يجدون منه غير المثل المستعصي على مداركهم الناشئة مما خلف الأولون ، فكان عبد المطلب بهذا أول من خط الصحيفة الأولى في كتاب الشعر المدرسي في وقت صدف فيه التلاميذ عن كل ما يتصل إلى العربية بسبب . وإنك لتقرأ أبياته في ذلك ، فتراها جليلة الغرض ، رائعة المغزى ، سهلة التناول ، سلسة النسج كأن يقول

إن كنت تبغي المعالي فالعلم أهدى سبيلا
فأحقر الناس من قد طوى الحياة جهولا
تراه بالجهل يمشي بين الأنام ذليلا
نحن الذين اتخذنا نور العلوم دليلا
لعلنا في المعالي بها نجر الذيولا

وهو لا يكتفي بحثهم على العلم في هذا النسق الجميل ، بل يحببهم إلى الأدب بنوع خاص فهو عنده كل شيء في الحياة ، اسمعه حين يصف لتلامذته القلم فيقول

إذا اهتز في طرسه معجبا أذل شعوبا وأحيا شعوبا
فيسعد قوم به تارة وقوم به يصطلون الخطوبا
وطورا تراه يفض الجموع وطوراً تراه يثير الحروبا
وطورا ينادي الورى سائلا وطوراً يرد عليهم مجيبا

وفي ديوانه مقطوعات عامرة من هذا الطراز الرقيق ، ويقيني أنه أول من حفز صديقه وتلميذه الأستاذ الهراوي إلى سد هذا الفراغ في الأدب ، فنظم ما نظم من شعر الأطفال ترضية لأستاذه الحبيب

(البقية في العدد القادم) محمد رجب البيومي